محاضرات في مادة قضايا النقد / طلبة سنة ثانية ماستر تخصص أدب قديم (الفوجان: 3–4)

الأستاذ دياب قديد

محاضرة اللفظ والمعنى

مشكلة اللفظ والمعنى نتيجة حتمية من نتائج التفكير الفلسفي والعقائدي الذي ساء القرن الثالث وقد رافقت النقد الأدبي منذ الجاحظ ومنذ الجاحظ يحزب النقاد العرب للشكل و لم يهتموا بالمعاني. الشكل عندهم يعني الألفاظ والأوزان والنسيج يعني المظهر الخارجي الشكلي للقصيدة، وسواء أكان اللفظ عند بعضهم أهم من المعنى، أم أن المعنى عند البعض الآخر أهم من اللفظ فإن الفصل في حد ذاته مظهر من مظاهر النظرة الشكلية التقريرية للشعر.

وقد عرض ابن رشيق لمذاهب النقاد المختلفة في مشكلة اللفظ والمعنى، فتسهم إلى قسمين:

1–قسم يفضل اللفظ عن المعنى فجعله غايته.

2–وقسم يفضل المعنى على اللفظ، أما أصحاب اللفظ فينقسمون فرقا

فمنهم من يذهب إلى فخامة اللفظ وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية=هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة=ذرى منبر صلى علينا وسلما

ومنهم من ذهب إلى الجلية في الألفاظ والقعقعة بلا طائل معنى كقول أبي القاسم بن هاني:

أصاحت فقالت: وقع أجرد شيظم=وشامت فقالت: لمع أبيض مخذم

وما ذرعت إلا لجرس حليها=ولا رمقت إلا ...في مخذّم

ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ.

أما النوع الآخر الذي يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي في الألفاظ سواء أكان قبيحا أو خشنا، وأخيرا هناك من يرى أن أكثر الناس يفضلون اللفظ على المعنى ويورد بعض الأقوال التي تؤيد

ذلك مثل «اللفظ أغلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة وأعز مطلبا فإن المعاني موجودة في طباع الناس يستوى الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على جودة لألفاظ وحسن السبك وصحة التألف» [1].

مذاهب النقاد في اللفظ والمعنى:

1-تفضيل اللفظ وتتضح نظرة الجاحظ للفظ والمعنى من عبارته الشهيرة «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي...».

لفهم موقف الجاحظ من قضية اللفظ والمعنى ينبغي أولا أن نضع نص «المعاني مطروحة في الطريق...» في سياقه العام، لقد ساق الجاحظ هذا النص وهو بصدد الحديث عن شعر العرب والمولدين، وكان الخلاف مستشمرا في عصر الجاحظ وما قبله حولها القديم والحديث، وكان هناك تعصب بالغ للشعر القديم على الشعر الحديث لمجرد أن ذاك شعر قديم وهذا شعر محدث، وكان اللغويون أكثر الناس تعصبا وأعنفهم تطرفا ضد الشعراء المولدين ولا أول على ذلك من خبر ضمن (أخبار تمام) ويدور حول موقف ابن الأعرابي من الشعر فقد قرأ عليه أحد تلاميذه أرجوزة أبي تمام.

وعاذلٌ عذلته في عذله=فظنّ أني جاهلٌ من جهله.

و لم يكن ابن الأعرابي يعرف أنها لأبي تمام، ولهذا أمر تلميذه بكتابتها له فسأله تلميذة: أحسنة هي؟ فقال ابن الأعرابي ما سمعت بأحسن منها، فأخبره التلميذ بأنها لأبي تمام، فقال الشيخ: خرق خرق فساق الجاحظ بعد ذلك موقف اللغوي أي عمر بن الشيباني من بيتين سمعها في المجد فتعجب لهما غاية التعصب يروي الجاحظ ذلك فيقول: وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين وهما قوله:

لا تحسبن الموت موت البلى= فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا=أفظع من ذاك لذل السّؤال

ثم يقول الجاحظ معلقا على موقف أبي عمر، ذهب الشيخ إلى استحسان المعنى والمعاني مطروحة في الطريق...».

لقد كان الجاحظ يقصد الرد على أولئك الذين يحكمون للشعر إلا إذا صادف هوى في نفوسهم ومن هنا كان اختلاف الأحكام تبعا لاختلاف الأهواء ونفى الجاحظ صفة الشعر عن البيتين السابقين وتهكمه بقائلها هذا التهكم اللاذع لدرجة نفى صفة الشاعرية عن ذريته من بعده.

والدارس لتراث الجاحظ يلاحظ اهتمامه بالأمرين معا ومن نصوصه حول التسوية قوله «نقلا عن بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة «ومن أزاغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف اللفظ ال...أو من حقها أن تصونها كما يفسدها ويهجنهما وأولى مراتب القول عنده: هي أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكن معناك مكشوفا وقريبا وإما عند الحاجة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت».

ومن قول الجاحظ يسوى بين اللفظ والمعنى «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراد ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ومن فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة».

وعلى تعدد الطبقات تتعدد الأساليب وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا فإن الوحشي من الكلام... يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات.

كما أن مراعاة الموقف وملاءمة اللفظ للمعنى جعله يقول «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح والكتابة في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال».

قادمة بن جعفر لم يقصر الجودة على واحد بعينه، بل رآها فيها مؤتلفة ومجتمعة ومن هنا يجيء الحكم على القصيدة بالجودة أو الرداءة يقول «ولما كان لكل واحد من الثمانية (اللفظ والمعنى والوزن

والقافية وصور اختلافهما معا.

صفات يمدح بها وأحوال يعاب من أجلها وجب أن يكون جيد ذلك ورديئه لاحقين للشعر، إذا كان ليس يخرج شيء منه عنها، ليكون مجموع ذلك إذا اجتمع في شعر كان في نهاية الجودة، وتعصب بذكر العيوب ليكون مجموع ذلك إذا اجتمع في شعر كان في نهاية الرداءة».

إن قدامة يهتم بالصياغة وجودة القصيدة فنيا.

وتتضح مسألة ارتباط الركنين معا عند الآمدي في قوله: «ينبغي ان تعلم سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحوج مستمعه إلى طول ...وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره...وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا وذلك مذهب البصري وإذا جاء لطيف المعاني في غير بلاغة ....جيد ولا لفظ فن كان ذلك مثل الطراز الجيد على الثوب الخل أو نفث الجيز على خذ الجارية القبيحة الوجه

وقد جسد ابن رشيق دعوته الصريحة إلى ملاءمة اللفظ للمعنى بقوله: «اللفظ جسم، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه من غير أن تذهب الروح وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظا كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ماقدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختلّ المعنى كله وفسد نفي اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين. إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة وكذلك إن اختلّ اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنن نجد روحا في جسم البته».

وقد قسم ابن قتيبة أقسام الشعر إلى أربعة أضرب:

1-ضرب منه حسن لفظه وجاد ومعتاد.

2-وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنتفشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

3-وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه.

4-وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه.

والشعر عند ابن قتيبة تبعا لهذه الرؤية لفظ ومعنى.

ولا يأتي ابن طباطبا بجديد فيما يخص اللفظ والمعنى فالحقيقة أن فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى برأي بعض النقاد جعلها ابن طباطبا نصب عينه وكثيرا ما كان يذكر باللفظ بقوله «فمن الأشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة الألفاظ حكمة المعاني عصيبة التأليف إذا نقصت وجعلت نثرا لم تبطل جودة معانيها ولم تفقد جزلة ألفاظها ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحا» وقوله «وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتفتح في غيرها».